

الآراء والعلم والخبرة، وحرية الفرد وعظم مسؤوليته عن الجماعة: كل ذلك ينتج خلافا في الرأي. لا في الدين، ولا يصدع وحدة، وأن كل أمة متمدنة لابد لها من حكومة. والحكومة في كل مكان وزمان هي الحكومة، وإنما تختلف بالمبادئ والدساتير التي تحكم بها وترعى بمقتضاها المحكومين.

وفي العصر العباسي الأخير استشرى الداء وعظم البلاد بقيام عدة أمراء للمسلمين. في بغداد وفي القاهرة وشمال إفريقيا. وفي الاندلس، بل وغير هؤلاء من الأمراء المتغلبين الذين استقلوا بالأطراف في شرق الدولة وغربها. فاستبجح الوضع في الحديث والتاريخ. بل زور التاريخ في ماضيه وحاضره ليوافق الأهواء المختلفة لأمراء المؤمنين المختلفين. ثم جاء كتّاب التاريخ المحدثون. فزادوا النار ضراما، ولونوا الخلافة الذي زعمه الاقدمون، بلون جديد تبعا لأسا تذهبهم من غير المسلمين فصوروا الخلافة تصويرا عسريا: فقالوا مثلا، حزب الأحرار (عن الانصار) ويرون كذا وكذا وهم أمعن في الديمقراطية من غيرهم. وقالوا. الحزب الارستقراطي (عن قريش) ويرون كيت وكيت. وقالوا: الحزب الهاشمي المتحد وهو أمعن في الارستقراطية إذ يرى لزعمائه حقا إلهيا مقدسا... إلى آخر ما قالوا، وبهذا يفهمون الناشئة أن ذلك الخلافة الأول كان خلافا على المبادئ الجوهرية، مع أنه ان صح وجود خلافة فهو على الوسائل لا على المبادئ فالدين واحد وأحكامه ومقرراته واحدة عند الجميع لم يقع فيها خلافا حتى الان.

وقد لاحظت أن المؤرخين الأقدمين من الفرق المختلفة كتبوا ما كتبوه تحت ضغط التعصب، وسلطان التفرقة، فتنازوا، وجرح بعضهم بعضا، واندفعوا في مخالقات للواقع اصطنعوا لها الأدلة، ونسب كل منهم إلى الآخر ما يحرمه الدين بل يكاد كل منهم يفرض على أشياعه كراهية المخالفين لهم كراهية دينية، ولعل بعض هؤلاء وبعض أولئك كانوا يتفاضون أجر تجريح المخالفين لحكامهم، وثمان الوضع والتزييف، ولعل بعضا آخر كان معذورا امام تغالي المخالفين، فقد يعذر